محاولة الوصول إلى قدر معقول من اليقين، ومحاولة التقرب من الإله، فإن اللغة الواحدية تعبِّر عن محاولة بروميثية ـ فاوستية ـ شيطانية، للوصول إلى اليقين المطلق عن طريق افتراض التطابق الكامل بين النص والواقع (في حالة اللغة الحرفية)، أو عن طريق الإشراق (في حالة اللغة الأيقونية).

اللغة الأيقونية واللغة الحرفية: دراسة مقارنة:

المجاز ـ كما أسلفنا ـ تعبير عن رؤية كاملة للكون: علاقة الإله بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالطبيعة. ففي النظم التوحيدية، المجاز تأكيد لإنسانية الإنسان وتركيبيته، ومقدرته على التجاوز، وتميُّزه عن عالم الطبيعة/ المادة، وهو أيضاً تأكيد لإحساسه بالمسئولية وحدوده، واستقلاله باعتباره جزءاً واعياً من كلّ. والمجاز هو أيضاً تأكيد لوجود الله وتجاوزه وتنزُّهه عن عالم الطبيعة المادية الواحدية. ولغة المجاز هي تعبير عن الاتصال والانفصال بين قطبين: الإله والإنسان ـ الإنسان والطبيعة ـ المطلق والنسبي ـ الذات والموضوع. ولأنهما قطبان يتفاعلان، فهما يشكلان ثنائية فضفاضة. وكل هذا يرجع إلى أن المركز (اللوجوس) غير كامن في النموذج أو في العالم، فاللغة المجازية تعبير عن رؤية توحيدية، ترى الإله باعتباره قوة متجاوزة للطبيعة والتاريخ غير حالَّة أو متجسِّدة فيها.

أما في المنظومات الحلولية الكمونية، فإن المركز (اللوجوس) يحل إما في الإنسان، أو في الطبيعة، أو في كليهما. وبالتالي يصبح العالم مكتفياً بذاته، ويمتزج المطلق بالنسبي، والإنساني بالطبيعي، والروحي بالمادي، وتختفي الثنائية الفضفاضة والتركيبية، وينتفي التجاوز. وإذا كانت النظم التوحيدية تعبيراً عن الاتصال والانفصال (بين الخالق والمخلوق)، فإن النظم الحلولية الكمونية تتسم باستقطاب غريب بين الرغبة في الاتصال الكامل (بالكلِّ الإلهي، أو الكوني، أو الطبيعي)، والنزوع إلى الانفصال الكامل عن عالم التركيب والهُوية والمسئولية الخُلُقية المركَّبة. إنها في واقع الأمر تعبير عن النزعة الجنينية، أي النزعة نحو التحام